الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

التراث وما ينفعنا منه

الحلقة الثالثة

لماذا لا نصحح التاريخ

حاولت في الحلقتين السابقتين أن أعطي المستمعين والمستمعات صورة عن شخصية اللغة العربية التي لا تعتبر في نظري وحسب حاملة أمينة لتراثنا الحضاري العظيم بل هي بالإضافة إلى ذلك قوة إنسانية فعالة قادرة على تطوير القيم والمقدرات المجتمعية لا في العالم العربي فقط بل في مستوى العالم البشري كله ...

وفي اليوم الذي نستطيع فيه أن نصحح مفهومنا لجوهر اللغة العربية ولدورها في التاريخ نجد حتماً علينا أن نبادر إلى تصحيح التاريخ نفسه...

ويلاحظ بادىء الأمر أن مادة التاريخ لم تقدم إلى الطلاب والطالبات على اختلاف المراحل التعليمية في بلادنا وفي بلاد الشعوب الأجنبية الأخرى في ضوء مطالب معينة وأغراض خاصة لا تمت إلى موضوعية المعرفة في قليل أو كثير.

كيف يدرس التاريخ في فرنسا أو بريطانيا أو أميركا أو الاتحاد السوفياتي ؟

ما هي الخطوط العامة الموضوعة لدراسة التراث البشري الحضاري والتي يقصد بها اعداد الأجيال الطالعة لتفهم دور الشعوب الفاعلة في تحقيق المكاسب الأخلاقية والفكرية والفنية ؟

الواقع أن الصورة التي يخرج بها الطالب والطالبة من المدرسة الثانوية أو الجامعة هي صورة ناقصة جداً في موضوع تراثنا الحضاري الخاص.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

إنها بعبارة أخرى صورة " مشوهة " لأنها صورة غير كاملة ولا شاملة ...

لنأخذ تراثنا الحضاري مثلا على ذلك ...

إن أكثر الكتابات الموضوعة بين أيدي الأجيال الطالعة لا تتناول من هذا التراث في أكثر الأحيان إلا جانبه السياسي.

من الطبيعي أن يكون تسجيل الأحداث السياسية خاضعاً لشهوات معينة ولمصالح مرحلية دقيقة . قد تفرضها ظروف وطنية ولكن لا تفرضها موضوعية المعرفة أبدا ...

والتاريخ في حقيقته ليس نشاطاً سياسياً وحسب ، فالحق أن النشاط السياسي هو أقل النشاطات المجتمعية قيمة وخطراً ، فهناك الأدب والفنون على اختلافها ، وهناك العلم والفكر الخالص والأخلاق والدراسات الانسانية المتعددة ...

هذه كلها لا تمنح إلا النذر اليسير نسبياً من الاهتمام والجهد والعناية ...

ولو فرضنا أن هذه النشاطات قد درست فإنها لا تدرس أيضاً إلا في ضوء عصبية حضارية معينة.

لنعد إلى كتب التاريخ التي تدرس في فرنسا مثلاً ... يقول ماكس فانتاجو تعليقاً على هذا الجانب الخطير من التوجيه الثقافي " الحقيقة أن من لا يتخصصون منا في الدراسات التاريخية لا يحفظون من دراساتهم المدرسية غير ثلاثة أشياء ... أولاً .. تاريخ أثينا واسبرطه في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، منذ معركة طراثون على التقريب حتى غزوات الاسكندر المقدوني ، ثم تاريخ روما إبتداءً من الحروب القرطاجية حى ولاية أوغسطس (وقد يتذكر بعض المحظوظين اسم قسطنطين) ، وأخيراً ، وبعد فجوة قرون عديدة ، تاريخ فرنسا ، منذ عهد كلوفيس حتى أيامنا هذه ، مختصراً فيما يتعلق بعهد شارلمان وهوغ كابيه ، ومطولا مدروساً من خلال المجهر بين عامي ١٧٨٩ و ١٨١٥ م .

ويمضي الكاتب بعد ذلك فيقول ...

" وقد أصبحت هذه الطريقة جزءاً من عاداتنا وتكويننا التاريخي بحيث أنها لا تكاد تلفت نظرنا عند الوهلة الأولى . فتقسيم الزمن إلى مراحل مهمة ، وأخرى مهملة باقية في الظلام ، في نوع من الانتقاء التحكمي هو شيء عادي

جداً ، كما نجد انقطاع الترابط بين هذه المراحل شيئاً عادياً أيضاً ، مما يشعرنا بتقطع تاريخ حضارتنا ، تقطعاً لا يتفق مع الواقع في شيء . أضف إلى هذا أننا لا نستغرب معرفتنا بمنازعات ومنافسات فراد احوند وبرونهو ، التي لا تبعث على الفخر ، بينما نحن نجهل العصور التي كان يعيش فيها فيثاغورس واتليدس ، وأخيراً لا يدهشنا أن نعرف بالتفصيل الدقيق ولاية أوغسطس ، ثم نجهل اسم قطب الحضارة الكبير ، الخليفة المأمون ... ".

هنا ينتهي كلام ماكس فانتاجو. ونتبين من خلاله مر الشكوى من طريقة تعليم التاريخ الفرنسي للفرنسيين أنفسهم . فما بالنا حين نعلم مثلاً ، أن تاريخ القرون الوسطى الذي تجلت فيه عبقرية الحضارة العربية واللغة العربية والذي كانت فيه القيادات الفكرية والروحية والعلمية الخالصة بأيد عربية ، ما بالنا حين نعلم ، أن هذا التاريخ هو قطعة مجهولة تماما لا من قبل الأجيال الأوروبية الطالعة بل من قبل أجيالنا نحن أيضاً ...

ويا ليت أننا نجهل هذا التاريخ وحسب . هناك ما هو أدهى وأمر ... إن الأدهى من الجهل هو المعرفة المشوشة ، وتلك المعرفة السطحية التي تتناول الأشخاص والأحداث تناولاً سطحياً سخيفاً يبعث على الشعور بالتفاهة والضعف كلما وردت أسماء تاريخية معينة في أذهان الأجيال الطالعة ...

وإنني لأفضل ألف مرة ألا يدرس التاريخ أبدا على أن يقدم إلى الأجيال الجديدة بالطريقة السقيمة الشوهاء التي يقدم بها إلى هؤلاء ...

في تاريخ حضارتنا قمم يتمثل في كل منها نشاط معين في ميدان معين من ميادين حياتنا البشرية ...

في تلك الحضارة ألوان وفنون من العمران والأنظمة لا نعرف عنها غير القليل ...

في تلك الحضارة ألوان وفنون من الأفكار والفلسفات والدراسات النظرية لم تتمتع حتى اليوم بالعقول الحصينة الواعية التي تستطيع إبراز أصالتها إلى الأجيال الجديدة ...

وفي تلك الحضارة أيضاً ألوان من الفنون والآداب تجاوبت مع عالمية الرقعة التي كانت تدور فوقها عمليات الكفاح من أجل الخير والجمال والحق والعدل ...

في تلك الفنون والآداب مواقف بطولية وفئات شعرية وشواهد بلاغية وصور موسيقية وغنائية وألوان من الترف العجيب ورؤى ومشاهد غنية غنى لا يكاد يخطر في بال الكثيرين منا ابدا ...

وهناك بالإضافة إلى هذا كله تشريع بلغ أقصى الجودة والتطور ودراسات تتصل بجملة النشاطات الانسانية التي لا تجتمع في العادة إلا لشعب عظيم أو لمجموعة من الشعوب استطاعت أن تكون على مستوى القيادات الكبرى في التاريخ ...

فأين هذه كلها من معارف طلابنا وفتياتنا ؟

أين هذه الثروة تنبعث من جديد لتكون بداية انطلاق جديد يكمل الماضي ويطوره ويرسله عبر الجديد المستحدث ؟

إن تقديم هذه التراث التاريخي إلى الأجيال الطالعة مدروساً دراسة موضوعية صحيحة بعيداً عن الهوى والأغراض غير العقلانية هو القضية الكبرى التي يتصحح بها تاريخنا الحضاري بتحققها وبوضع الحلول التي تحتاج إليها ...

العمل المطلوب من النخبة القائدة عندنا عمل كبير لا يقوم به إلا كبار ولا يتحسس بأهميته إلا المؤمنون بأن لهم رسالة يجب أن يؤدوها لا إلى أبنائهم من بعدهم وحسب بل إلى العالم كله ...

لنبدأ إذا بتصحيح تاريخنا قبل أن نعلن بأننا قد توصلنا إلى أن نعرف من نحن وما قيمتنا في صميم المعركة التي يخوضها إنسان اليوم من أجل الحرية والمعرفة والحب ...